ولادة وأثرها في حياة ابن زيدون

تأليف : عبد الرزاق الهلالي

مطبعة المعارف – بغداد ١٩٧٦

الدكتور شكري فيصل

نشر الأستاذ عبد الرزاق الهلالي الأديب العراقي المعروف منذ مايزيد على ربع قرن (١٩٤٧ م) كتاباً بعنوان : ولادة وابن زيدون ، جاء أثراً لاهتمامه بهذه الشخصية الأدبية ، واتخذ هذا الاهتمام أشكالاً مختلفة (بين مقال ينشر ، وحديث يذاع ، وكتاب يصدر إلى الناس ص ٢٨) .

وقد أتاح المهرجان الذي دعت إليه وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية في المغرب بإشراف الوزير العالم الأديب الأستاذ محمد باحنيني فرصةً طيبة أمام المهتمين بالأدب الأندلسي من عرب ومستعربين لتعميق الدراسات حول ابن زيدون وإثارة الجديد فيها .

وكان من بين الأبحاث التي قدّمت للمهرجان بحث كتبه الأستاذ الهلالي بهذا العنوان : ولادة وأثرها في حياة ابن زيدون ، تناول فيه أثر ولادة في مظاهرَ ثلاثةٍ من حياته : أثرها في شعره ، وأثرها في حياته الاجتماعية ، وأثرها في سلوكه الذاتي . ثم أخرجه للناس في هذا الكتاب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكن الكتاب لاينطوي على هـــذا البحث فحسب ، وإنما ينطوي كذلك على شيء من التأريخ الأدبي فقد عرض لحكايتين في تاريخ الأدب العربي : أولاهما حكاية معاصرة هي حكاية المهرجان وبعض الوثائق التي تتصل به ، من مثل الدعوة إليه ، والظروف التي أحاطت به .. والثانية قديمة — معاصرة هي الآراء الأدبية التي دارت حول ولاّدة .

أما الحكاية الأولى فقد ضمن المؤلف كتابه عرضاً موجزاً لفكرة المهرجان منذ البداية ، أي منذ ساورت الفكرة وزارة الدولة للشؤون الثقافية بمناسبة الذكرى الألفية لمولد ابن زيدون « ٣٩٤ - ١٣٩٤ » ، ثم لبعض المراحل الـــتي مرت بها ، ثم لنص الدعوة المشتركة التي وجهها الوزير الأديب باحنيني والتي كانت نصاً أدبياً رائعاً ، ثم لتأجيل الموعد ، ثم لكلمة الافتتاح — التي كانت في ذات الوقت كلمة وداع ، والتي ألقاها السـيد الوزير على الأعضاء المشاركين .

ولم يكن ذلك من شأن الكتاب ، ولكن المؤلف خشي ألاّ يصدر الكتاب التذكاري عن المهرجان ، أو يتأخـــر ، فأسرع إلى تسجيله بغية حفظه بين دفتي كتاب .

أما حكاية الآراء الأدبية حول ولادة ، فذلك أن المؤلف لاحظ أن كتاباً للأستاذ علي عبد العظيم - وكان في أصله رسالة ماجستير ص ٢٣ - صدر سنة ١٩٥٥ ، أفاد من بحثه هو ، الذي كان أصدره سنة ١٩٤٧ ، تشابهاً معه أو تطابقاً أو توافقاً ، دون أن يدلّ عليه أو يعرّف به أو يصاحبه في شيء .

وقد حاول الأستاذ الهلالي أن يشير إلى ذلك في البداية ، وفي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المقدمة ، إشارةً لبقة « ص ٦ » كان هذا التلويحُ بها يغني عن التصريح . ولكن اعتزازه بما كان انتهى إليه من رأي في تفسير ســـلوك ولادة ، وموقف الأستاذ عبد العظيم في سكوته عن كتابه ، بَنَتْهُ التصريح بأنه لم يره « ص ٢٣ » ـ ذلك دفعه إلى أن يجاوز الإشارة في المقدمة إلى الافصاح الصريح في فقرات من الكتاب .

وقد اضطره الأمر أن يثبت مقالاً آنفاً ـ كان أعدّه ولم ينشره ـ بعنوان : ولادة بين الهستريا والشذوذ الجنسي ، ضمنه شهادةً من الأستاذ الدكتور بدوي طبانه لبحثه الأول ص ١٤ ، وتلخيصاً لبعض ما كان قاله فيه ، وبخاصة في فصل : فتاة ساحرة ، ثم لما قاله بعده الأستاذ علي عبد العظيم في كتابه « ابن زيدون ، عصره ، حياته ، أدبه » في النقاط ذاتها ، هـــادفاً من ذلك إلى التأكيد — عن طريق المقارنة بين بعض الفقرات من هنا وبعضها من هناك ـ على متابعة الأستاذ عبد العظيم له وأخذه منه .

والواضح أن الأستاذ عبد العظيم لم يقتصر على الآراء التي وقف عندها الهلالي : عدم الزواج ص ١٧ ، الانحراف الجنسي والهستريا ص ١٨ وما بعدها ، ثم ص ٤٣ وما بعدها ، وإنما طرح فرضيات أخرى مما قاد المؤلف إلى مناقشته فيها (السادية عند ولادة ص ٢٤ والماسوشية عند ابن عبدوس ص ٢٤ — ٢٥) وإنكارها .

وفي النفس كثير مما يلجأ إليه بعض الباحثين من اقتباس هـــذه النظريات النفسية المختلفة ، ثم تطبيقها على بعض شخصياتنا الأدبية ، فالأمر في ذلك يجب أن ينهض على عمق ودقة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وليس الخوف ، في العادة ، من اتصال الآراء أو تلاحقها أو تلاقيها .. وإنما الخوف أن تستبد بنا بعض الآراء استبداداً عنيفاً فتحملنا على التسليم بها أو الانقياد إليها .

ذلك أننا لسنا أمام شخصية معاصرة نستطيع أن نتعرف إليها ، وإنما هي شخصية غبرت عليها قرون ، ألف سنة .. ثم نحن لا نملك عنها إلا بعض الأخبار وبعض الأشعار .

وتفسير الشخصية بالخبر أو الخبرين والبيت أو البيتين أمرٌ عسير ولو تركنا الحبل على الغارب لكانت ولادة منحرفة وشاذة ، وهستيرية ، وسادية .. وذلك شأن لا يتيح الاطمئنان .. وحسبنا أن نرى في هذه الآراء أنها ملاحظات مثيرة ولكنها ليست حقائق قاطعة .

إن استخدام نظريات علم النفس على هذا النحو العريض يحتاج إلى تعامل طويل مع المناهج النفسية المختلفة ، وواضح أن استثمار هذه المناهج في دراسة ولادة سيكون صعباً جداً لتعذر تطبيق المنهج الاستبطاني (الذي يقوم على ملاحظة الإنسان نفسه) أو المنهج الموضوعي (الذي يقوم على أن نلاحظ نحن سلوك الآخرين) أو المناهج الأخرى التي تتكامل منها .

وأياً كان تعدد الدوافع التي أدّت إلى إصدار هذا الكتاب وتنوعها فمن المؤكد أن الأستاذ الهلالي شارك بجهد واضح في هذا المهرجان على هذين النحويين : ما يتصل بابن زيدون أو بولادة نفسها (من هي ولادة ص ٣٠ وما بعدها ، ثم أثرها في شعره وحياته الاجتماعية وسلوكه) ثم ، ما يتصل بتطور الدراسات الأدبية المعاصرة في موضوع معين من نحو آخر .

ولعل مثل هذا البحث ينهض مثلاً واضحاً على هذا التطور ، حين يبدأ

(١١)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

باحث موضوعاً ينقّب فيه ليقع على بعض الآراء ثم تُتناقل هذه الآراء بالمناقشة والتعميق والتنمية عقداً بعد عقد ، وباحثاً بعد باحث .

والأستاذ الهلالي في بعض أبحاثه ومقالاته الأدبيه أحد البارزين في جماعة أدبية توشك أن تكون في بعض خصائصها مدرسة متميزة .. تُعنى بأن تربط دائماً في حديثها عن الفكرة أو الظاهرة ، بتسجيل بعض الأسماء التي تصاحب هذه الفكرة أو التي تشهد لها .. هذه المدرسة التي نجـــد أسماء لامعة من أسمائها في بريد مجلة الأديب بوجه خاص والتي تعتمد الرسائل الاخوانية بعضاً من قوالبها فيما يساورها من فكَر أو تعليقات . . وإنه لمُعْتَمد ومُعَوَّلٌ ، يمازج بين الذات والموضوع أو بين الذوات والموضوعات على نحو مثير ، ويمزج ما تكتبه روحاً من روح العلائق والصداقات .

فهل يفسر هذا ما نجده في هذا البحث من أسماء معاصرة ؟

بقي أن أشير إلى بعض الملاحظات الخفيفة : فقد ورد اسم الكتاب مرتين (ص ٢٨ و ص ٣٠) على أنه « ولادة وابن زيدون » مخالفاً لما على صفحة الغلاف . وعنوان الغلاف ألصق بالموضوع ، وأوضح دلالة عليه .

وورد في هامش ص ١٠ ، في صدر التعليق على كلمة « ازدياد » التي جاءت في رسالة الأستاذ الوزير باحنيني على أنه مصطلح مغربي ، وهو في الواقع مصطلح عربي، ثم هو قبل ذلك مصطلح قرآني مأخوذ من قوله تعالى في الآية الكريمة ﴿ اللهُ يَعلمُ ما تحملُ كلُّ أنثى وما تغيضُ الأرحامُ وما تزدادُ وكلُّ شيءٍ عندهُ بمقدار [١] ﴾ .

وورد بيت ولادة : « وأمكن عاشقي من صحن خدي » (ص ١٦

(١) سورة الرعد الآية ٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وص ٣٢) وأفضّل أن تكون قراءته بالتضعيف وحذف حرف العطف :أمكّن .

والأستاذ الهلالي لايشير إلى أرقام الصفحات في بعض الهوامش التي يأخذ عنها (راجع مثلاً هوامش الصفحات ٤٠ – ٤٢ ، ٤٩ فيما أخذه عن الدكتور شوقي ضيف أو أحمد زكي باشا أو الذخيرة أو ..) .

تمنيت لو أن الأستاذ الهلالي استغنى في هذا الكتاب عن بعض ما كان يمكن أن يُستغنى عنه ، وبخاصة ما كان من تسجيله لحديث له صحفي في آخر الكتاب .. ذلك لأنه لايتضمن جديداً لم يسبق أن أشار إليه .

ومهما يكن من أمر ، فسيظل عنصر الإثارة الفكرية ومحاولة تعميق البحث عن هذه الشخصية الأديب بعضَ مايدفع إلى شكر المؤلف وتقديره على عمله في هذا الجزء اللطيف .

دمشق شكري فيصل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net